

القلق الوجودي... الثمن الباهظ لـ«الحرية»



«قاعة» التشكيلية الذي يميز (1909) — (1985)

جوهي سليم

عانت امرأة متزوّجة حديثاً نوبات رعبٍ كانت تختابها حين كان زوجها يخرج من المنزل ويتركها وحيدة. في كل مرة، كانت تجد نفسها بمفردها بعد رحيله، كانت تصاب بالذعر من فكرة واحدة: أن تجلس خلف النافذة وتنادي المارة على طريفة بائعات الهوى. لم يكن هناك شيء في ماضي هذه السيدة، شخصيتها أو تربيتها، يبيّن سبب الخوف الذي يعتريها. لعلّ ظرفاً ما، بلا أهمية كبرى، مثل حديث عابر أو قراءة ما، أثار لديها ما يُمكن أن نسميه «دوار الممكن». وجدت المرأة نفسها فجأة «حرة» بشكل متوحش، وهذه الحرية التي تبعث على «الدوار» بدت نافذة على احتمالات لامتناهية. هذه الحكاية رواها سارتر كمدخل للحديث عن شعور القلق الذي حجز مكاناً كبيراً في فكر فلاسفة الوجودية. ارتبط القلق لدى هؤلاء بتيمات وجودية محورية مثل: العدم، الموت، الحرية الإنسانية وغيرها.

تشبيه القلق بـ«الدوار» ليس خاصاً بسارتر، إذ نجده عند عدد من الفلاسفة الوجوديين، حتى إننا نجد التشبيه نفسه لدى الفيلسوف الفرنسي باسكال (القرن السابع عشر)، وصولاً إلى التعبير الأشهر عند كيركيغارد، أي الفلسفة «التي الوجودية الذي أعلن في كتابه «مفهوم القلق» أن «القلق هو دوار الحرية».

قبل؟ يمكن تعريف الدوار بأنه تحديدًا الانجذاب نحو الفراغ. هكذا، إن القلق يختلف عن الخوف، يكون الأخير موجّهاً نحو موضوع معيّن. أما القلق فهو شعور موجّه نحو الفراغ، وليس له موضوعاً. بالنسبة إلى كيركيغارد، إن هذا الدوار يجيء من «اندهاشنا أمام العدم»، ولكن كيف يأتي هذا الشعور؟ وكيف يمكن تجاوزه؟

«حتى لا نغمق في عالم من الوفاة»

«حين أرى العمى والبؤس لدى الإنسان، حين أشاهد كل الكون صامتاً، والإنسان متروكاً لنفسه بلا ضوء، حائراً في هذه الزاوية من الكون، من دون معرفة من وضعه هنا، ماذا جاء ليُفعل، وماذا سيصبح، حين سيموت عاجزاً عن كل معرفة، أدخل في الذعر، مثل رجل خمل نائمًا في جزيرة قاحلة ومرعبة، واستيقظ من دون معرفة أين هو، ومن دون وسيلة للخروج». يمكن اعتبار وصف باسكال هذا تعريفًا أولياً للشرط الإنساني من وجهة نظر الوجوديين، على الرغم من كونه أتبياً من حقبة سابقة بكثير على ظهور الوجودية كتيار فلسفي. إن الإحساس المهيم لهذا الشرط الإنساني والذي نجده لدى كل الفلاسفة الذين اهتموا بالوجود، هو القلق بحسب الفيلسوف الفرنسي إيمانويل مونييه.

للقلق كمفهوم فلسفي، مكانة مهمة لدى كيركيغارد، هايدغر، سارتر ويوفوار. مثل هذا المفهوم محركاً للمعالجة الوجودية للإنسان والكون وعلاقتها. في كتابه «مفهوم القلق»، جعل كيركيغارد من إحساس ذاتي مثل القلق موضوعاً لمفهوم فلسفي. بهذا الكتاب، يرى كيتيرون أنه اتسب لنظريات هايدغر وسارتر عن

الموضوع، وحتى فرويد. لدى كيركيغارد، أن الروح هي التوليف (synthesis) بين النهائي واللات نهائي، وهذا التوليف/ التركيب يتم فقط عبر القلق. القلق هو دوار الحرية الذي يولد لأن الروح تريد التوليف بين النهائي واللات نهائي، بين محدودية الإنسان ولامحدودية الممكن. الروح هي «قوة ملتبسة»، فيما القلق هو الرابط بين الإنسان وبين هذه القوة. يشرح كيركيغارد أن القلق هو «واقع السيد، أشار مونييه في معرض حديثه عن مفهوم القلق لدى كيركيغارد إلى أن الأخير أجاب على الذين عارضوا التشديد على القلق لديه، مشبّهين إياه بالتعبير عن فكرة «الاضطراب» في الفكر الوجودي. فأوضح أن لا علاقة للامرين بعضهما ببعض إلا عندما تتقلص فلسفة القلق إلى «شعار سوسيولوجي».

كانت الممكن

يقلق الإنسان، بالنسبة إلى هايدغر، لأنه غير قادر على أن يكون نفسه، لأنه يشعر بأنه غير أصيل، لأنه متحرّك في العالم اليومي العادي. هذا العالم بطمئنتي، لكن في الوقت نفسه أشعر فيه بغربة، غربة عن الكينونة. في التعاطي اليومي يعجز المرء عن أن يكون ذاته. من هنا، يأتي القلق بالنسبة إلى الفيلسوف الألماني. فيما يكون الخوف «خوفاً من...»، يأتي القلق أمام نفسي، لأنني لست متحقّقاً. بالنسبة إلى هايدغر، نحن قلقون لأننا «مرميون». قلقون لأن هناك تقاوتاً بين ما نحن عليه وبين ما

الدهشة امام العدم

عندما نقول لطفل «لا تقطع الشارع»، ينتخبه فجأة إلى أنه «قادر» على أن يقطع الشارع فعلاً. انطلاقاً من هنا، طلل كيركيغارد نض السقوط من سفر التكوين في العهد القديم الذي اعتمده في «مفهوم القلق» لتوضيح مقصده. إن المنع الإلهي أريك آدم في جنة عدن، فأوقف في داخله الإمكانية، ما جعل آدم في تلك اللحظة يدرك أنه حرّ.

برأي كيركيغارد، قلق آدم جاء من إمكانية أن ينتهك المنع الإلهي في أي لحظة. يلفت هنا إلى التناقض الساخر، حين يكون القانون الأخلاقي المنجسد في المنع (لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر) نفسه هو الذي يحث الإنسان على «الخطا».

ينطوي القلق عند كيركيغارد على معنى مزدوج: نفسي وانطولوجي. أولاً، على الصعيد النفسي، وانطلاقاً من تحليل النض نفسه، يرتبط القلق بالإحساس بالذنب. هنا تظهر التوجهات المسيحية لكيركيغارد، كما ينظر لهذا البعد لديه، بارتباطه بالجنسانية التي مثلت حجر زاوية التحليل النفسي مع فرويد. ثانياً، على الصعيد الانطولوجي، إن القلق مرتبط بالخلط بين الذعر والدهشة التي يثيرها العدم والموت لدى الإنسان. أما نتيجة الربط بين هذين البعدين (النفسي والانطولوجي، الذنب والدهشة) فهي الحرية.

أما كيف يحمّ تجاوز هذا القلق بالنسبة إلى الفيلسوف الدانمركي، فإن الإجابة جاءت على مرحلتين. أولاً عبر الاختيار. بالنسبة إلى كيركيغارد إن الاختيار هو «اللحظة المحظية للوجود». يقول مونييه إن مثلما طارد هم الكلية فكر هيغل،

برغم كل الأم الإنسان وماسيه، هو يمتلك أن يختار. الأمر الذي يمكنه من تجاوز القلق. لكن هذا «الحل» لم يصمد طويلاً لديه، إذ إنه اقتصر على المرحلة الأخلاقية من مراحل الوجود الثلاث في فكره (إلى جانب المرحلة الجمالية والدينية). ومثلما آمن إبراهيم بمشيئة الإله حين كاد أن يضخّي بابته، يرى كيركيغارد أن «قفزة الإيمان» هذه هي الحل الأخير للإنسان. كذلك، أشار مونييه في معرض حديثه عن مفهوم القلق لدى كيركيغارد إلى أن الأخير أجاب على الذين عارضوا التشديد على القلق لديه، مشبّهين إياه بالتعبير عن فكرة «الاضطراب» في الفكر الوجودي. فأوضح أن لا علاقة للامرين بعضهما ببعض إلا عندما تتقلص فلسفة القلق إلى «شعار سوسيولوجي».

يقلق الإنسان، بالنسبة إلى هايدغر، لأنه غير قادر على أن يكون نفسه، لأنه يشعر بأنه غير أصيل، لأنه متحرّك في العالم اليومي العادي. هذا العالم بطمئنتي، لكن في الوقت نفسه أشعر فيه بغربة، غربة عن الكينونة. في التعاطي اليومي يعجز المرء عن أن يكون ذاته. من هنا، يأتي القلق بالنسبة إلى الفيلسوف الألماني. فيما يكون الخوف «خوفاً من...»، يأتي القلق أمام نفسي، لأنني لست متحقّقاً. بالنسبة إلى هايدغر، نحن قلقون لأننا «مرميون». قلقون لأن هناك تقاوتاً بين ما نحن عليه وبين ما

يقلق الإنسان، بالنسبة إلى هايدغر، لأنه غير قادر على أن يكون نفسه، لأنه يشعر بأنه غير أصيل، لأنه متحرّك في العالم اليومي العادي. هذا العالم بطمئنتي، لكن في الوقت نفسه أشعر فيه بغربة، غربة عن الكينونة. في التعاطي اليومي يعجز المرء عن أن يكون ذاته. من هنا، يأتي القلق بالنسبة إلى الفيلسوف الألماني. فيما يكون الخوف «خوفاً من...»، يأتي القلق أمام نفسي، لأنني لست متحقّقاً. بالنسبة إلى هايدغر، نحن قلقون لأننا «مرميون». قلقون لأن هناك تقاوتاً بين ما نحن عليه وبين ما

القلق كجزء من «الفعل»

لفهم القلق من وجهة نظر سارتر، يجب فهم، ولو عام وسريع، لفلسفة الوجود لديه. بخلاف كيركيغارد وهايدغر، يغيب البعد الديني أو الروحي عن نظرية سارتر. الإنسان متروك في عالم لا خالق له، وبالتالي لا أمل خارجياً يمكن التعلق به. كل شيء ممكن وعرضي. نحن وحيدون بلا مساعدة ولا أعذار. الإنسان مرمي في هذا العالم، وهو المسؤول الوحيد عن كل ما يفعله. من هنا نفهم، ما يقصده الفيلسوف الفرنسي حين يقول إن الإنسان «محكوم بالحرية». محكوم، لأن هذه الحرية مثقلة للغاية، لا يصبص أصل من الخارج. الإنسان مسؤول بمفرده عن الإنسان وعن مستقبله.

لذلك، ولكوننا متروكين، بحتمّ علينا أن نخّار بانفسنا كينونتنا. لذلك، الوجود يسبق الجوهر لدى سارتر، وهذا هو التعريف الأساسي للفلسفة الوجودية لديه. أنا أكون ما أصير، والجوهر هو مشروع بينيه الإنسان، وليس معطى مسبقاً.

هذه المهمة كلها تتزامن بالطبع مع القلق. فيصبح الإنسان بحذ ذاته مرادفاً للقلق، برأي سارتر. يستعين الفيلسوف الفرنسي برمزية قصة النبي إبراهيم، القصة العزيزة على كيركيغارد. يقول إن قلق إبراهيم، عندما يامر الله بالضححية بابته، لم يكن قلقاً فردياً فحسب، بل هو قلق لأن إبراهيم كان في تلك اللحظة مفضواً عن البشرية جمعاء. لأن الإنسان مسؤول عن الإنسان، إن كل ما يحدث مع الفرد كأنه يحدث مع كل إنسان. لذلك إن كل اختبار أخلاقي، باهمية اختبار إبراهيم، يكون فيه الإنسان كأنه موضع انظار الإنسانية كلها.

بلغت سارتر إلى أن الأمر لا يتعلق هنا بالقلق الذي يقود إلى سكبنة الالافعل، بل إن القلق الذي تقصده

الفلسفة الوجودية هو ذلك الذين يحرك باتجاه «الفعل». كما أن القلق ليس سيطرةً تفصلنا عن الفعل، لكنه جزء من الفعل نفسه. في الشق الملحد من الوجودية، إذا جاز التعبير، لا أمل إلا بـ«الفعل». الإنسان ليس سوى ما يفعله، هذه نجدته الوحيدة. وهنا تكمن أهمية القلق، كدافع نحو الفعل الذي يحوّل الوجودية إلى عقيدة تفاعلية بامتياز. في وجه من يتهمها بـ«التبشير باليأس»، القلق هو المنبّه الذي يوقف الإنسان ليصنّع الإنسان.

المظهر المزجج للحرية

على خطى سارتر، رأت سيمون دو بوفوار أن الإنسان متروك تماماً، وبذلك تصبح أفعاله حتمية والترامات مطلقة. إذا كان الله موجوداً، فإن بإمكانه أن يصفح ويمحو ويعوض، ولكن إذا كان الله غير موجود، تصبح أخطاء الإنسان لا تغتفر.

قدمت بوفوار فكرة جديدة ومثيرة للاهتمام في هذا السياق، حينما أشارت إلى أن الإنسان لا يحث أن يشعر بأنه في خطر. وبما أن القلق هو المظهر المزجج للحرية بحسب تعبيرها، يهرب الإنسان من القلق، وهو بالتالي يهرب من حريته. كيف؟ بالنسبة إلى «الجندي» إلى الإحتماء بالقيم المعّدة سلفاً، والانشواء تحتها كما ينحضي الطفل في عالم الكبار. توضح الفيلسوفة الفرنسية أن وضع الطفل يتسم بإيجاد نفسه في كون لم يساهم في تأسيسه، يأتي إلى عالم مصمم من دونه، وهو لذلك يظهر بالنسبة إليه كمطلق، ولا يمكنه بالتالي إلا أن يخضع له. في عيني الطفل، إن اختراعات الإنسان، اللغة والقيم، هي وقائع معطاة سلفاً، لا يمكن تجنيها كالكسماء والأشجار.

ولكن بعد الطفولة، تبدأ «العيوب» بالظهور. يصاب الطفل بالذبول، ثم يسأل نفسه «ماذا عليّ أن أفعل؟». عند هذه اللحظة، يتنهار العالم الجدي، وتحين لحظة الاختيار التي تأتي في المراهقة تحديداً. تقول بوفوار إن المراهقة هي لحظة الاختيار الأخلاقي. الأخلاق، الأيديولوجيات، الاتزامات الكبرى، تقي الإنسان من «دوار الحرية» الذي يحيى عنه كيركيغارد. تبقى متوازناً تحت سقف اليقين وفي منأى عن خطر الممكن. في هذه الحالة، يغلب الحنين إلى الطفولة، إلى الأمان، لا لشيء ولكن لأننا بحاجة إلى «الهيئة» تثبت الأرض تحتنا، ولتريحنا من دوار الحرية المرفق.

مراجع

- 1- Introduction Aux Existential-ismes, Emmanuel Mounier, Editions Gallimard, 1962
- 2- Le Concept d'Angoisse, Soren Kierkegaard, Gallimard, 1935
- 3- Pensées, Blaise Pascal, Gallimard, 2004.
- 4- The Ethics Of Ambiguity, Simone de Beauvoir, Philosophical Library
- 5- L'Existentialisme Est Un Humanisme, Jean-Paul Sartre, Folio Essais, 1996
- 6- Être et Temps, Martin Heidegger, traduction par Emmanuel Martineaux